السلاف بين انتهازية الآفار والمصالح البيزنطية في القرنين السادس والسابع الميلاديين

إعداد

علياء مجدي محمد محمود البباوي

أ.د محمد عبد النعيم محمد عبده

أستاذ العصور الوسطى بقسم التاريخ كلية الآداب – جامعة القاهرة

المستخلص:

عندما انهارت قبيلة الهون وتفرقت هي وأتباعها من القبائل، توغلت عدة قبائل- كالصرب والبلغار والكروات والآفار وغيرهم - في الأراضي البيزنطية. وقد كان للآفار دور في فترة ظهور السلاف، فتارة استغلهم البيزنطيون لمساعدتهم في القضاء على السلاف وبلاد الفرس، وتارة أخرى سعوا للقضاء عليهم. وأحيانًا دفعت المصلحة الآفار إلى الاتحاد مع السلاف ضد الإمبراطورية البيزنطة، فاستخدموا السلاف كأداة لتهديدها سعيًا لتحقيق مصالحهم الشخصية.

الكلمات الإفتتاحية: السلاف ، قبائل السلاف ، الأفار، البلقان ، الإمبراطورية البيزنطية.

قبائل السلاف

ظهرت هذه القبائل بعد انهيار إمبراطورية الهون بوفاة أتيلا Atilla عام ٤٥٣م، حيث كانوا تابعين لقبيلة الهون Huns [١]. خرجت قبائل السلاف بحثًا عن الاستقرار[٢]. فكانت أراضي الدولة البيزنطية خير مستقر لهم في ذلك الوقت وأتيحيت لهم الفرصة للتعرف على طبوغرافية الأراضي البيزنطية عندما كان الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) يحارب في عدة جهات للحفاظ على حدود الدولة البيزنطية، لذلك كان عليه تجهيز جيش قوي وكان دائمًا في احتياج إلى المزيد من الجنود فجمعهم من كل حدبٍ وصوب. فقد استعان بعناصر من السلاف في حروبه ضد الجرمان. فاستغلوا انشغاله بحروبه في الجبهة الغربية لشن أول غاراتهم على البلقان عام ٥٤٧-٥٤٨م، ووصلوا فيها إلى ديراخيوم Dyrathium (دورازو- Durrazo) التي تقع على الشاطئ الشمالي لإقليم ألبانيا[٣].

وربما وقع الاختيار على شبه جزيرة البلقان تحديدًا لمعرفتهم بها منذ خضوعهم لقبيلة الهون حيث غزا الهون أرض البلقان في القرن الخامس الميلادي متحدين مع القوط الشرقيين[٤]. إلا أن الآفار لم يتركوا السلاف وشأنهم، بل سعوا لمشاركة السلاف في شبه جزيرة البلقان. وسعوا لإخضاعهم لسلطانهم إما حلفاء أو رعايا بهدف الاستعانة بهم على غزو الأراضي البيزنطية ونهبها.

الآفار وتوظيف السلاف سياسيًّا

ينحدر الآفار من عنصر الترك الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر تولا أو نهر تيل أو النهر الأسود - كما كانوا يطلقون عليه - وقد هجموا علي قبائل الفار، والهون وقتلوا أعدادًا كبيرة منهم، ففر منهم مائتا ألف، أطلقوا على أنفسهم اسم قبيلة الآفار -الذى كان اسمًا لقبيلة قديمة انقرضت- لذا ترجح (اسمت غنيم) أن أصل الآفار ينحدر من الترك الإيغور الذين ينحدرون من أصل الهون[٥] وهم من البدو الرحل من غرب سيبريا، ولأنهم كانوا دائمًا يجدلون شعرهم، فقد وصفهم يوحنا الآسيوي بالشعب ذي الشعر الطويل[٦]، واعتاد الآفار الترحال بحثًا عن مأوى لهم، وفي ترحالهم كانوا ينهبون كل ما تطاله أيديهم، لأنهم شعب اختلفت صفاته عن السلافيين، حيث كانوا أكثر ضراوة وقسوة، وعرف عنهم السلب والنهب للثروات ثم الهروب من مكان لآخر، وكانت الأراضي البيزنطية هي ملاذهم المفضل؛ لكثرة خيراتها. ويُعد عام ٥٥٨م أول ظهور لهم بالأراضي البيزنطية بالتزامن مع السلاف مع اختلاف طبيعة كل منهما، فالآفار شعب همجي ظهروا كالسلاف على ساحة التاريخ في عهد جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م)، لا باعتبارهم جنودًا يستعين بهم في حروبه إنما باعتبارهم

---

[١] - عنصر آسيوي من أصول تركية.
The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford,1991, Vol.II,pp. 959 - 960.

[٢] - وسام فرج، السلاف،١٤١-١٤٢.

[٣] - وسام فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ٣٢٤-١٠٢٥م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ١٠٢.؛ عماد النجار، الصرب، ص ١٤؛
A.Evacalopoulos, Origins of the Greek Nation The Byzantine period 1204-146, Trans., Ian Moles, New Brunswich. P2.

[4] - A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire 324-1453, Canada1952, P.109.

[٥] - اسمت غنيم، الآفار، كلية التربية، جامعة الإسكندرية ١٩٩١، ص ١٥، ١٨.

[٦] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١١٣.

أصدقاء وحلفاء له ورعايا يكسبون الود. وكان جستنيان الأول يجزل لهم من العطايا والذهب والهدايا الكثير، حتى قيل "أنه أفلس المملكة وأعطاها للبرابرة" فقد عقد معهم معاهدة[١]. ويشير بروكبيوس في كتابه التاريخ السري لبروكبيوس أن جستنيان شخصية مبذرة ومحبة للدم وتسعى إلى افتعال المشاكل؛ هو من بادر بدفع الأموال دون سبب، بل هو من طلب من الآفار التحالف معه[٢].

ولأن الطبيعة البشرية تميل إلى حب المال، فليس من المستغرب أن تقبل قبائل رُحَّل كالآفار أموالًا دون عناء، بل أكثر من ذلك فلم يخش الآفار قبول هذه الإعانات مقابل الحرب مع البيزنطيين ضد البلغار والأنتس Antai الذين كانوا جيرانهم قديمًا. وسواء صدق بروكوبيوس في تحليله لشخصية جستنيان أو أخطأ؛ فإنه لا يمكن إنكار أن قبائل الآفار قد ساعدت الإمبراطورية في كثير من حروبها. وافتعلت الحروب في حال امتناع أي إمبراطور عن تقديم الأموال لهم بمقابل ودون مقابل مثلما اعتادوا من جستنيان. وهذا ما وضع الإمبراطورية في مأزق مع الآفار لسنوات، خاصة مع الظروف السيئة التي مرت بها الإمبراطورية.

وعلى الصعيد الآخر لم يترك الآفار القبائل السلافية وشأنها، بل طاردوهم لإخضاعهم لسلطانهم، واستطاعوا فيما بين عامي ٥٦١-٥٦٧م السيطرة على السلاف المقيمين في بوهيميا وسيليسيا وأراضي البلقان. وإن لم يدم الأمر طويلًا لهم، فسرعان ما اتجه السلاف مع سادتهم الآفار لاحتلال الأراضي اللومباردية بعد جلائهم منها. وإذا كان السلاف تضرروا من سيطرة الآفار وإجبارهم لهم على المشاركة في حروب لصالحهم، وهم أبعد ما يكونوا عن فنون الحرب فإنهم أثبتوا جدارة في الحروب، وتارة كان السلاف حلفاء للآفار وتارة أخرى كانوا يخضعون لهم.

الآفار شعب محب للمال ومن طباعه نكث العهود؛ لذلك لم يحفظوا معاملة جستنيان الأول الطيبة لهم، الذي كان كلما جاءته رسل من الآفار أجزل لهم العطايا من الذهب والفضة حتى إذا انصرفوا حضر غيرهم ليجزل لهم أيضًا العطايا والمنح، وكان يظن بهذا الفعل أنه يستطيع أن يستفيد منهم في حروبه ضد أعدائه من الفرس والسلاف ويسترد الأراضي الرومانية والبيزنطية، لكنه لم يجن حصاد ما بذل من أجله مال الإمبراطورية. وعلى الرغم من مشاركتهم له في حروبه ضد الفرس إلا أنهم أيضًا تحالفوا مع الفرس ضد إمبراطوريته كلما وافق هذا التحالف مع مصالحهم المادية، حتى أنهم سعوا لعبور نهر الدانوب وغزو الأراضي البيزنطية[٣].

وقد يكون الآفار هم من دفعوا بالسلاف للمشاركة مع الجيش البيزنطي في حروبه ضد الفرس وقدموهم للإمبراطور جستنيان ككبش فداء كمساعدة منهم للإمبراطور في حروبه، في مقابل حصولهم على العطايا منه، وعلى الرغم من عدم جدوى الأمر للدولة البيزنطية فإنه عاد على السلاف بالخير حيث تمكنوا من التعرف على الأراضي البيزنطية وخططوا لاحتلال البلقان والاستقرار بها.

---

[١] - المصدر نفسه والصفحة.

[٢] - بروكبيوس، التاريخ السري، ترجمة، صبري أبو الخير، ط١ ٢٠٠١ عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ص ١١٠.

[٣] - اسمت غنيم، الآفار، ص٢٢.

موقف جستين الثاني من الآفار والسلاف

عندما ورث جستين الثاني العرش(٥٦٥-٥٧٨م) غير سياسته تجاه الآفار لعدم قناعته بسياسة جستنيان الأول معهم. فعندما آتى الآفار إلى القسطنطينية لينالوا المعونة السنوية التي كان يعتبرها الآفار حقًا مكتسبًا لهم نظير المساعدات التي قدموها لجستنيان، قابلهم جستين بالرفض وأهانهم عندما ذهب إلى أن ما كان يدفعه جستنيان ليس إلا أجورًا لعبيده وليس منحة تقديرًا لهم كما يظنون، وأن الإمبراطورية في غنى عن مساعداتهم، وأنها قادرة على حماية أراضيها دون الحاجة إليهم[١].

ولم يكتف جستين بهذا بل أمر بالقبض على ثلاثمائة شخص منهم وطردهم خارج العاصمة وحبسهم في خلقدونية لستة أشهر، وعندما أفرج عنهم توعدهم بأنهم إذا عادوا لن تقوم لهم قائمة مرة أخرى[٢].

بهذا نجح جستين في تلقين الآفار درسًا، وتخويفهم من مصير لا تحمد عقباه إذا استمروا في ابتزاز الدولة البيزنطية، أو الاحتكاك بها؛ لذا أخذوا يسيرون بمنأى عن الدولة البيزنطية، فجمعوا القبائل التي كانوا يسيطرون عليها، كالسلاف والبلغار وتوظيفهم لتوسيع مملكتهم التي امتددت من بوهيميا إلى الدانوب الأدنى ومن جبال الألب إلى السهول الجنوبية الروسية، وحتى أصبحوا القوة المسيطرة على أوروبا بعد رحيل اللومبارديين[٣].

وكان السلاف قد استغلوا انشغال الآفار بتوسيع أملاكهم وشقوا طريقهم نحو البلقان وتراقيا للاستقرار بها والاستقلال عن الآفار والتخلص من حياة الحروب غير الموافقة لطباعهم، في وقت لم يهتم الآفار بهم لعلمهم بأنهم شعب مسالم، على عكس الآفار الذين أخذوا يخططون بعد أن قويت شوكتهم للانتقام من جستين فسعوا لعقد معاهدة مع ملك المورفينجيين الذين كانوا على حرب معه لتوسعة ملكهم. وعرض خاقان الآفار عليه أن ينسحب الآفار من الأراضي الموروفنجية مقابل أن يمدهم بالمؤن والمعدات اللازمة لحربهم ضد البيزنطيين، ولم يجد ملك المورفينجيين سبيلًا إلا الموافقة على هذه المعاهدة. وليحافظ على مملكته من غضب البيزنطيين أرسل سفراءه إلى جستين الثاني في القسطنطينية يطلب التحالف معه فوافق على الفور ليحد من هجماتهم الشرسة والمستمرة على الإمبراطورية[٤].

وما أن أستعد بجان Bajan خاقان الآفار وجمع جيشه وعدته واتجه إلى مهاجمة البيزنطيين في إقليم تراقيا عام ٥٦٩م استطاع الجيش البيزنطي بقيادة القيصر تيبريوس[٥] هزيمة الآفار، الذين لم ييأسوا وعاودوا الهجوم مرة أخرى على البيزنطيين، لكنهم هذه

---

[1] - **Obolensky, Neighbours, P.477.; Corippus, Op. Cit P.3. PP. 65- 109.**
ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطوريين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥-٥٨٢م)، رسالة ماجستير بكلية الآداب –جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م، ص١٤٩.

[٢] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١١٣.

[3] - **Obolensky, Neighbours, P.477**

[4] **Gregory Of Bishop of Tours, History of Franks, Columbia, 1916, PP.217-218;233-234.**

[٥] - عندما مرض جستين الثاني واستمر مرضه عدة سنوات تعطلت فيها مصالح الدولة وزادت هجمات السلافيين والآفار على الإمبراطورية من جانب والفرس من جانب آخر أشار مجلس الشيوخ على صوفيا زوجة جستين أن تقنعه يعين قيصرًا له وهو مازال بكامل قواه العقلية في بعض الأوقات حتى لا تضيع الإمبراطورية فوقع اختياره على تيبريوس الذي كان حارسًا له، ليكون قيصرًا ثم إمبراطورًا بعد وفاته. يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ٣٤-٣٦.

المرة حاصروا مدينة سيرميوم Sirumium الواقعة على نهر الساف[١] التي تعد من أقوى التحصينات البيزنطية في شمال إلليريا، كما أنها تُعد ضمن أراضي إقليم بانونيا الذي استولى عليه الآفار من اللومبارديين، وقد اعتبر الآفار حربهم مع البيزنطيين حربًا لرد الاعتبار بسبب الإهانة التي تعرضوا لها على يد جستين الثاني، والحصول على أرض ظنًا منهم أنها أرضهم. ودخل الخاقان مع حاكم مدينة سيرميوم في مفاوضات، لكن لم يكن في مقدور حاكم سيرميوم اتخاذ قرار مهم دون الرجوع إلى الإمبراطور، مما أدى إلى ازدياد الوضع سوءًا بين البيزنطيين والآفاريين خاصة أن الآفار كانوا أكثر قوة في هذا الوقت من البيزنطيين، الذين خضعوا في النهاية لشروط الآفاريين ودفع جزية سنوية بقيمة ثمانين ألف قطعة من الذهب مقابل خروج الآفار من مدينة سيرميوم[٢].

موقف تيبريوس من الآفار والسلاف

عندما تولى تيبريوس الحكم (٥٧٨- ٥٨٢م) استغل التحالف الذي عُقد مع الآفار في عهد جستين الثاني وسعى للتخلص من السلاف وكان خطر السلاف الذي بلغ في عام ٥٨٠م تراقيا، التي دمروها، وعبروا الدانوب وخربوا المناطق التي استولوا عليها ونهبوا ثرواتها وقاموا بسبي سكانها. حتى وصل خطرهم إلى العاصمة البيزنطية حيث اقتربوا من أسوار القسطنطينية، وحطموا أحد أسوارها الخارجية، وأشعلوا فيها النيران، وسرقوا آلاف الماشية الملكية. واستمر خطر السلاف يهدد القسطنطينية قرابة الأربع سنوات من حكم تيبريوس مما سبب ذعرًا لسكان هذه الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم ولسكان العاصمة[٣]. الأمر الذي يعكس قوة السلاف المكتسبة من خوضهم المعارك مع البيزنطيين تارة ومع الآفار تارة أخرى. والتي أكسبتهم ثقة وغرورًا.

وقد شكّل السلاف مصدر قلق للدولة البيزنطية أكثر من الآفار بالرغم من توسعات خاقان الآفار التي امتددت من البحر الأدرياتيكى إلى البحر الأسود ومن البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط[٤]. إلا أن قبولهم للمعونات من البيزنطيين جعل البيزنطيين يشعرون بالاطمئنان نسبيًا من جانبهم بعكس السلاف الذين رفضوا الاستسلام والخنوع وتمسكوا بأنٍ يكون لهم كيان مستقل، ولهذا يقول leeper أن تأثير السلاف في التاريخ كان أكثر عمقًا من تأثير الآفار الرحل[٥]. ويمكن القول إن نشأة السلاف الزراعية جعلتهم يرتبطون بالأرض والاستقرار أكثر من الشهرة العسكرية، وكان ارتباطهم بشبه جزيرة البلقان كأرض زراعية وراء محاربتهم من أجلها. ومع ذلك تضن المصادر التاريخية علينا بالمعلومات الكافية عن

---

[١] - مدينة سيرميوم: تقع ضمن أراض البلقان وهي مدينة سيريمسكا حاليًا في صربيا، كانت حصنًا مهمًا للإمبراطورية الرومانية، حيث جعل منها دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) عاصمة لإقليم بانونيا، ثم خضعت للأقوام = الجرمانية والتركية، مثل الهون والقوط الجيد ثم الآفار، ثم استردها البيزنطيون إلا أنها سرعان ما خضعت للبلغار، وفى القرن العاشر أصبحت منطقة نزاع بين المجر والإمبراطورية البيزنطية.

ODB, III- 1906;

انظر هامش ٣، عماد أمين، الصرب وعلاقتهم بالقوى السياسية في البلقان، ص ١٥.

[2] - Theophans, Op . Cit. 365; Obolensky, Neighbours, P.478; Lebeau, Histoire du Bas Empire Tom 10, Paris 1929. PP.

ناصر عبد الحميد، جوستين وتيبريوس، صص١٥٠-١٥٣.

[٣] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١١٤.

[4] - Allen Leeper, German, Avars and Slavs, P122.

[5] - Allen Leeper, German, Avars and Slavs, P123.

السلاف، في حين عجت بالمعلومات التي تتصل بالتاريخ السياسي، والعسكري الخاص بالأباطرة والمحاربين.

وكعادة الآفار في الغدر والخيانة، فلم يترددوا لحظة في معاونة البيزنطيين ضد السلاف مادام هذا يخدم مصلحتهم. لذلك استغلوا لجوء الإمبراطور لهم واحتياجه لمساعداتهم في صد خطر السلاف، وفرضوا عليه شروطهم؛ التي تمثلت في أن يمنحهم الإمبراطور نفس حقوق الرعايا البيزنطيين، بما في ذلك حق ممارسة النشاط التجاري[1].

لم يكن أمام تيبريوس سوى القبول بشروط الآفار، الذين كانوا على استعداد لمهاجمة السلاف بلا تردد، بعد أن أرسلوا رسلًا إلى خاقان الآفار يطلبون منه دفع جزية لهم. وهو أمر يُعد مجازفة كبيرة من شعب كالسلاف يفتقر إلى فنون الحروب المهارية، والقوة البدنية، والمادية كما يفتقر إلى وجود زعامة، وأغفل أن انشغال البيزنطيين بخطر الفرس هو ما وفر لهم فرصة لتحقيق مكاسب على حساب الإمبراطورية البيزنطية، فما كان من خاقان الآفار إلا أن قتل رسل السلاف، وحشد ستين ألف من الجيش الآفاري بقيادة الفارس يوحنا لمحاربتهم.

ولو كان تيبريوس رفض شروطهم لهاجم الآفار السلاف ولكنهم انتهزوا الفرصة ليحققوا بها أكبر قدر من المكاسب. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي شجع الآفار على مهاجمة السلاف؛ بل كان هناك سبب آخر وهو الطمع في الثروات التي تحت أيدي السلاف، والذين ظنوا أنهم حققوا ثروات طائلة نتيجة غزوهم أراض بيزنطية. ولما كان السلاف لم يحسنوا تقدير الأمر لقوة الآفار المعهودة في المعارك، فما أن علموا بتحركات الآفار نحوهم حتى فروا هاربين بأنفسهم وأسرهم إلى الغابات تاركين وراءهم أموالهم وثرواتهم. في الوقت الذي كان يقوم فيه الجنود السلاف في تراقيا بأعمال تخريب ونهب لثرواتها، وما أن وصلهم نبأ هجوم الآفار على أراضيهم حتى عادوا مسرعين إلى بلادهم لحمايتها، ولكنهم وصلوا متأخرين فقد سهل هروب السلاف من الأراضي التي استوطنوها المجال أمام الآفار لنهب الأراضي البيزنطية الأصل، وثروات السلاف المأخوذة من أموال البيزنطيين أيضًا. ولم ينل الإمبراطور تيبريوس من هذه الغنائم سوى عدد من الأسرى البيزنطيين الذين قد تم أسرهم على أيدي السلاف أثناء غاراتهم على الأراضي البيزنطية، وطالبوا الإمبراطور بدفع جزية سنوية لهم. ومنذ ذلك الحين أصبح السلاف رعايا للآفار يشاركونهم جميع الهجمات على مختلف الجيران حيثما كانت تكمن أهداف ومصلحة الآفار[2].

لم يتوان خاقان الآفار في نكث عهوده كعادته فغره انتصاره السهل على السلاف ولجوء الإمبراطور له طالبًا المساعدة للتخلص من السلاف فعاودوا الهجوم على مدينة سيرميوم Sirumium بمشاركة السلاف الذين كانوا رعايا للآفار وحلفاء لهم غصبًا وليس طوعًا، وبرغم محاولات الإمبراطور إنقاذ المدينة من الآفار إلا أنه فشل ولم يجد سوى الاستسلام لهم بدفع الجزية، واستغل الآفار العلاقة الهادئة نسبيًا والتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية وأرسلوا في طلب مهندسين لبناء جسر بأراض الآفار فاستجاب الإمبراطور تيبريوس لهم وأرسل العمال لتنفيذ المشروع، وبعد انتهائهم من بناء الجسر طلب منهم الخاقان أن يبنوا جسرًا يصلهم بالقسطنطينية، ولما رفضوا أعمل فيهم القتل ليجبرهم على القبول بتنفيذ الجسر، حتى استسلموا لطلبه وبنوا الجسر؛ الذي استغله الآفار لتهديد الإمبراطورية

[1] - Le beau, Histoire, Tom 10, P.157

[2] - Le beau, Histoire, Tom 10, PP.157-158; Vasiliev, History, P. 178

البيزنطية، وتحقيق أهدافهم، حتى أنهم أرسلوا للإمبراطور تهديدًا صريحًا " إذا أردت أن تكسبنا أصدقاء لك اعطنا مدينة سيرميوم لكى نستقر بها بإرادتك، فإن لم تعطنا إياها أخذناها عنوة وأصبحنا أعداءً لك"[١] وبعد أن كان الإمبراطور يستعين بهم على السلاف أخذ يراسل جيرانه من اللومبارديين والفرنجة ليستعين بهم على مهاجمة الآفار، ولما كان الآفار أكثر شدة في إلحاحهم على الإمبراطور، لذا لم ينتظر رد اللومبارديين والفرنجة والشعوب المجاورة، وأرسل قائده نرسيس للتفاوض مع الآفار محملاً بالذهب والأموال والهدايا الكثيرة، كما أرسل تيبريوس الى الآفار قائلًا "أرسلنا إليكم نرسيس المجيد حاجبنا، لكى يتفاوض معكم ويبرم معكم سلامًا" لكن لم تأت الرياح بما تشتهي السفن، حيث غرقت إحدى سفن نرسيس المحملة بالذهب والأموال، فمرض من الصدمة ومات متألمًا بفشل محاولته السلمية. ولما تباطأ اللومبارديون في مهاجمة الآفار-كما كان يتوقع تيبريوس- لم يجد تيبريوس سوى الاستسلام وأرسل قائد حرسه الإمبراطوري ليسلم الآفار المدينة (سيرميوم) بعد أن عانى أهلها على مدى سنتين من الحصار، والجوع حتى أكلوا القطط بعد أن انقرضت الماشية من المدينة. وما أن تسلمها الآفار حتى أغدقوا الأموال على أهلها وعطفوا عليهم ليعوضوهم مأساة المجاعة في رحمة لم يعهدها أحد منهم. ثم احترقت المدينة بعد سنة من استلام الآفار لها، دون معرفة السبب، وفر الآفار منها، بعد أن فشلوا في إنقاذها حتى احترقت عن بكرة أبيها[٢]. وقد استغل السلاف هذه الظروف لصالحهم، واستوطنوا أكثر في منطقة البلقان حتي أصبح معظمها يخضع للآفار والسلاف. وفي عام ٥٨٧م تعاونوا سويًا لحصار سالونيكا[٣]. أي في عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م).

موقف موريس من الآفار والسلاف

اختلفت سياسة الإمبراطور موريس في التعامل مع الآفار والسلاف خلال فترة حكمه التي قاربت العشرين عامًا؛ ففي النصف الأول من حكمه اتبع سياسة الدفاع ضد الآفار والسلاف. وفي النصف الثاني اتسمت سياسته بالهجوم عليهم. ففي بداية سني حكمه واصل الآفار سياستهم المعهودة في نكث العهود، ولم يكتفوا بما حدث في مدينة سيرميوم وإجبار تيبريوس على التنازل عنها. بل كرروا الأمر وهاجموا مدينة سينجيدون Singidon التي تقع في تراقيا وكانت غير محصنة بالقدر الكافي، كما كانت خالية من السكان لخروجهم لموسم الحصاد، حيث استغل خاقان الآفار خلوها من السكان، وهجم عليها واستطاع الاستيلاء عليها بعد معركة دارت بينهم وبين البيزنطيين، كما استولى على عدة مدن في منطقة تراقيا والليريا. فلجأ موريس للتفاوض معهم مطالبًا إياهم بالالتزام بالمعاهدة السابقة، ولكن الآفار هددوا بأنهم سيتوجهون إلى القسطنطينية. مما أدى إلى ازدياد حدة الخلاف بين الوفد البيزنطي والخاقان، فقرر الإمبراطور إرسال وفد آخر. ولأن الخاقان كان يدرك مدى الوضع السيء للإمبراطورية بسبب حروبها مع الفرس فاستغل الأمر وأملى شروطه حتى أنه طلب مبلغًا كبيرًا من المال، ولعلمه أنه فوق استطاعة الدولة فقد وافق على أن تدفعه الإمبراطورية بالتقسيط.

---

[١] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١١٣

[٢] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١١٣ ،١١٤- ١١٩ ،١٢٠.

[٣] - تعتبر مدينة سالونيكا المدينة الثانية بعد القسطنطينية، وأهم قاعدة للأسطول البيزنطي في البحر الإيجي، ومرفأ لإصلاح السفن التالفة، وهي عاصمة إقليم مقدونيا. اسمت غنيم الآفار، هامش ٣، ص ٣١.

لكن التحالف بين الإمبراطورية البيزنطية والآفار لم يدم طويلًا، لطبيعة الآفار، الذين لم يجنحوا للسلم، والهدوء، حيث اتجهوا لاستغلال السلاف وتوظيفهم لخدمة مصالحهم، حيث دفعوهم للهجوم على الأراضي البيزنطية وقدموا لهم المساعدات حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية، وهنا وجب على موريس أن يتحرك ويترك الفرس جانبًا فأرسل إليهم قائده العسكري كومينتوليوس الذي استطاع أن يجعلهم يفروا من تراقيا حيث قتل أعدادًا كثيرة منهم، وظل يطاردهم حتى فروا بعيدًا عن تراقيا. وكافأ الإمبراطور قائده وخلع عليه الألقاب الشريفة. وفي عام ٥٨٥م أرسله الإمبراطور موريس مرة أخرى لتعقب السلاف، وحقق النصر عليهم مرة أخرى وعاد بغنائم كثيرة إلى الإمبراطورية[١].

لكن يبدو أن مثل هذه المطاردات البيزنطية للسلاف كانت من أجل الحد من خطرهم، لا من أجل القضاء عليهم. ويرجع هذا إلى انشغال الإمبراطورية البيزنطية بالخطر الفارسي الذي كان الأشد ضررًا على الإمبراطورية من خطر السلاف. لذلك لم يمر عام إلا وجهز السلاف أنفسهم من جديد وفرضوا الحصار على مدينة سالونيكا عام ٥٨٦م. وعلى الرغم من تدخل الدولة البيزنطية وإنهاء هذا الحصار إلا أنهم عاودوا الهجوم مرة أخرى وكرروا الحصار على المدينة ذاتها في عام ٥٩٧م، ولكن هذه المرة تمكنت المقاومة الشعبية من الدفاع عن المدينة والحفاظ عليها، حيث وقف شعب سالونيكا أمام السلاف ودافع عن مدينته حتى فر السلاف.

ويقول القديس ديمتري أن عدد السلاف الذين حاصروا المدينة كانوا مائة ألف سلافي، وعلى الرغم من ضخامة العدد- الذي ربما بالغ القديس ديمتري فيه-، فإن موقف الشعب السالونيكي يُعطي إيحاءً بأن عدد الجيش السلافي كان كبيرًا، مما جعل الشعب السالونيكي يتحرك للدفاع عن المدينة قبل أن يصل السلاف إلى أسوارها، وهاجمهم عند كنيسة القديسة إيرين وخاضوا قتالًا من أجل حماية المدينة، واستطاع شعب سالونيكا أن يحافظ عليها من غزو السلاف[٢].

ويرّجح أن الآفار هم من حرضوا السلاف لإعادة حصار سالونيكا، وربما شاركت أعداد منهم في هذا الحصار، خاصة مع ذكر المصادر لعدد جيش السلاف الضخم، وهو عدد لم تشر إليه المصادر في الغارات السابقة للسلاف، ولم يذكر القديس ديمتري أيضًا أنهم شاركوا بأعداد كبيرة في حصارهم الأول لسالونيكا. ولما شك الإمبراطور موريس في ضلوع الآفار في الحصار السلافي الثاني لسالونيكا، فقد استغل وجود مندوب الآفار ببلاط القصر البيزنطي للحصول على الجزية السنوية، وألقى القبض عليه ثم أمر بنفيه إلى إحدى الجزر، وأن يُعامل معاملة سيئة قاسية[٣].

وقد وجد خاقان الآفار فيما حدث ذريعة لشن حرب جديدة على الدولة البيزنطية تدر عليه مكاسب جديدة، وإن كان دائمًا لا يبحث عن سبب لاستغلال الإمبراطورية أو الهجوم عليها. ولكن في هذه المرة وجد العذر الذي يتظاهر به للهجوم على المدن البيزنطية بتراقيا، واستطاع تحقيق النصر على الجيش البيزنطي، واحتل العديد من المدن البيزنطية وسقط حاكم تراقيا أسيرًا. مما أدى إلى سخط الجيش والشعب البيزنطي على الإمبراطور موريس وكان هذا بداية الأحداث التي أدت في النهاية إلى مقتله.

---

[1] - Theophylact Simocatta, Op.Cit., 1.7. PP. 246-247; Theophans, Op. Cit. 391

[٢] - Miracula santi Demetri, PG Col. 1286

[٣] - Miracula santi Demetri, PG Col. 1287

ومن هنا غيَّر الإمبراطور موريس سياسته تجاه الآفار والسلاف من الدفاع إلى الهجوم بعد أن عقد الهدنة مع كسرى فارس، وهدأت الحروب بينهما، حيث تفرغ موريس لمواجهة الآفار والسلاف منذ عام ٥٩١م وشَنّ أول حملة مباشرة في تاريخ الإمبراطورية منذ بداية ظهور السلاف في الأراضي البيزنطية، بقيادة القائد بريسكيوس[١].

حيث أخذ في حشد الجيش لمطاردة السلاف والآفار الذين استنكروا على الإمبراطور فعله، ونكثه للمعاهدة معهم فلجأ الآفار سريعًا إلى السلاف وطلب مشاركتهم المعركة ضد البيزنطيين، وكعادة السلاف لم يخلفوا عهدهم مع الآفار في الاستجابة الدائمة لهم، حتى أن السلاف استجابوا لطلب الخاقان وقاموا ببناء قوارب لعبور نهر الدانوب، لكن سكان مدينة سينجدون قاموا بحرقها مما أغضب السلاف فقاموا بفرض حصار على المدينة في عام ٥٩٢م. ولما أدرك الآفار ضخامة الجيش البيزنطي وخطره عليهم أمروا السلاف بفك الحصار والعودة إلى أراضيهم. ولم يتوان السلاف في الاستجابة لأوامر الآفار، وقبل فك الحصار، قاموا بنهب وسرقة ممتلكات سكان سينجدون. ثم عادوا إلى سيرميوم حيث خاقان الآفار الذي طلب منهم مجددًا بناء قوارب أخرى ليعبروا بها نهر الساف Save. وهنا يتضح لنا جليًّا كيف كان يوظف الآفار السلاف الذين لم يستطيعوا التعبير لخاقان الآفار عن رفضهم لفعل سكان سينجدون بحرق القوارب وضرورة استمرارهم في الحصار حتى تسقط المدينة. بل عادوا أدراجهم بمجرد أن وصلتهم الأوامر، كما امتثلوا للأوامر الجديدة دون نقاش أو تذمر. واشتركوا سويًّا في الإغارة على الأراضي البيزنطية حتى أن القائد البيزنطي بريسكيوس أسر الكثير من السلاف وحقق النصر عليهم عام ٥٩٣م. ويبدو أن الإمبراطور موريس آثر الاستمرار في مطاردة السلاف على أمل التخلص منهم وإبعاد خطرهم عن القسطنطينية لذلك كان يشن عليهم الحملات العسكرية صيفًا وشتاءً. حتى أن القائد بريسكيوس عندما وصله مبعوثين من الآفار لاستيضاح سبب الحملات قال لهم لم أحضر لمحاربتكم ولكنى آتيت لمحاربة القبائل السلافية[٢]. وكان هذا على غير عهد الجنود الرومانية بالحروب الذين اعتادوا الحرب صيفًا والراحة شتاءً مما أثار حفيظة الجنود ضد الإمبراطور. ومع هذا فقد أرسل القائد بريسكيوس حملة أخرى ضد السلاف بقيادة القائد ألكساندر Alexandrus واستطاع أن ينتصر عليهم بالخديعة. وحقق من جراء هذا النصر غنائم كثيرة. واحتفلوا بهذا النصر وانغمسوا في الشرب والاحتفال. ولم يتقبل زعيم السلاف هذه الهزائم المتكررة فحشد السلاف مرة أخرى للتصدي للجيش البيزنطي. ويبدو أن بريسكيوس لم يكن على استعداد لمواجهة السلاف مرة أخرى فعندما حشد جيشه ليعبر نهر الدانوب اصطدم بالسلاف. وحاول بريسكيوس استخدام ذكائه، عندما خاطب خاقان الآفار مطالبًا إياه بوقف هجمات السلاف، في مقابل جعل نسبة من الغنائم لخاقان الآفار، لكسب صداقته من أجل تأمينهم من السلاف، لكن الجنود البيزنطيين رفضوا هذا، في وقت كان الإمبراطور موريس يُطبق سياسة ترشيد النفقات، التي أغضبت الجيش، الذي كانت عناصره تطمح تعويض مستحقاتها من خلال هذه الغنائم. لذلك بدل بريسكيوس هذه الفكرة ورد أسرى الآفار الذين وقعوا في أيدي الجيش البيزنطي أثناء الحملة. وقَبِلَ الخاقان هذا العرض بفرح شديد.

---

[١] - منذ هذا التاريخ بدأ يكتب المؤرخون عن قبائل السلاف، واعتبروا أن تاريخ قبائل السلاف يبدأ من عام ٥٩١م، وفى القرن الحادي عشر ١٠١٨م تنتهي الصراعات البيزنطية السلافية من أراض البلقان وتعود السيادة البيزنطية على شبه جزيرة البلقان.

[2] - Theophans, Op . Cit. 393

وهنا امتثل السلاف لأوامر خاقان الآفار واستطاع بريسكيوس العودة إلى القسطنطينية بأمان[١].

ولو رفض السلاف الاستجابة لأوامر الآفار لربما حققوا انتصارًا غير مسبوق على الدولة البيزنطية. ويبدو أن بريسكيوس كان مدركًا تمامًا لهذا الأمر، ومدركًا أيضًا لمدى تلاعب الآفار وأن لهم الكلمة العليا على السلاف، لهذا فضَّل التفاوض مع الخاقان لوقف هجمات السلاف بدلًا من التفاوض مع السلاف مباشرةً.

وظن بريسكيوس أنه بذلك قد نجا، لكن الإمبراطور غضب عليه غضبًا شديدًا، نتيجة فعله الأخير مع الآفار وتجاهل الانتصارات التى حققها على السلاف، مما أدى إلى أن أصدر الإمبراطور قرارًا بعزله وتعيين بطرس Peter شقيق الإمبراطور قائدًا لجيش جبهة الدانوب. وأمره بتحريك حملة ضد الآفار. ولكن نتيجة لغضب الجيش من القرارات الخاصة بالرواتب والملابس وغيرها لم يستجيبوا لبطرس في الخروج في حملة، الأمر الذي أدى إلى تقاعس بطرس في تنفيذ الحملة. الأمر الذي دفع السلاف إلى احتلال عدة مدن وأمروا أهلها بزراعتها وحصدها ودفع نصف ما كانوا يدفعونه للإمبراطورية البيزنطية للسلاف [٢]. وهذا التصرف يأخذنا للتعرف على التطور الذي طرأ على عقلية السلاف وتفكيرهم في كيفية خوض المعارك وكسبها وبدلًا من سلب ونهب المدينة وقتل أهلها؛ أخذوا في كسب ود الشعب ليتمتعوا بالاستقرار الذي يبحثون عنه منذ بداية هجرتهم، والعيش في هدوء وكسب المزيد من الأراضي.

أخذ خطر السلاف يقترب مرة أخرى من القسطنطينة. وربما هذا ما أقلق موريس مما جعله يسخط على قائده بطرس ويوجه إليه اللوم الشديد بسبب عدم القيام بأية حملات ضد السلاف منذ توليه القيادة مخالفًا أوامره مما عَرَّضَ العاصمة للتهديدات السلافية مرة أخرى.

فخرج بطرس في حملة ضد السلاف وكان الإمبراطور قد أمره بألا يتوغل في تراقيا حتى لا يترك العاصمة سهلة السقوط في أيدي السلاف. فلجأ بطرس إلى جمع الحاميات من بعض المدن البيزنطية لتدعيم جيشه ولكن هذه الحاميات رفضت المشاركة. بسبب سياسة موريس التي سببت غضب الجيش. على أية حال كانت النتيجة ليست في صالح الإمبراطورية فقد انهزم بطرس وجيشه وأصبح السلاف على بعد ستين ميلًا من القسطنطينية مما جعل الإمبراطور يجند رجال الكنيسة لدَعم جيشه[٣]. ولم تنفع بطرس صلة القرابة مع موريس فقد عزله وجاء بالقائد بريسكيوس مرة أخرى. واستطاع بريسكيوس إنقاذ العاصمة والإمبراطورية من السلاف والآفار الذين اتحدوا معًا وأرسلوا قواتهم لحصار مدينة سينجيدون ولكن خبرة بريسكيوس في الحروب السلافية الآفارية مكنته من استرداد المدينة من أيدي الآفار وجعلهم يفرون هم والسلاف عائدين إلى البلقان[٤].

---

[١] - عن حملة بريسكيوس ضد السلاف انظر،

Theophylact Simocatta, Op.Cit., VI 6-7. PP. 250-255; Theophans, Op. Cit. 401-407;

وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص ١٤١-١٤٤.

[٢] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١٢٤.

[٣] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١٢٤.

[٤] - يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ١٢٤. ،

Theophylact Simocatta, Op.Cit., VII 7-11. PP. 281-291; Theophans, Op. Cit. 430-431;Lemeral, des Miracles De Saint Demetrius, V.I1, pp.89-90

ولا يمكن أن ننكر أن بريسكيوس قائد محنك على عكس القائد بطرس. وأن عزل بريسكيوس كان خطأ فادحًا وجاء في وقت خاطئ تعاني فيه الإمبراطورية داخليًا وخارجيًا. وساعدت سياسة موريس الداخلية على زيادة سوء الأوضاع. وظلت الحرب سجالًا بين الآفار والجيش البيزنطي إلى أن عقد الإمبراطور موريس معاهدة صلح مع خان الآفار عام ٦٠٠ م. وعلى الرغم من سوء الأحوال الاقتصادية للدولة واتباع سياسة ترشيد الإنفاق فإن موريس وافق على أن يدفع جزية أكبر مما سبق لخاقان الآفار مقابل أن يجعل نهر الدانوب حدًا فاصلًا بين البيزنطيين والسلاف، ويسمح لهم بالعبور من خلاله لمحاربة السلاف[١]. ولكن سرعان ما نكث الإمبراطور موريس هذا الصلح وعاد لمهاجمة الآفار وربما كان يقصد بهذا الصلح كسب مزيد من الوقت لإعادة ترتيب جيشه الذى بدأت تدب فيه الانقسامات حيث ظهر فوقاس – أصبح إمبراطورًا فيما بعد- الذى جذب انتباه الجنود والتفوا حوله خلال هذه المعارك الأخيرة بين البيزنطيين والآفار والسلاف، خاصة وأن الإمبراطور عاد بأخيه بطرس إلى قيادة الجيش مرة أخرى، رغم ما يحققه بريسكيوس من انتصارات مما تسبب في زيادة الاحتقان بالجيش البيزنطي، ولم يكتفِ بذلك بل أمر موريس جيشه بالمكوث في أرض السلاف ولكنهم رفضوا لقلة الغنائم بها. وثار الجيش وتمرد فكانت هذه الأحداث مكملة لسياسة موريس التي تسببت في قتله وإنهاء عصره، الذي شهد مواجهات مباشرة من السلاف والآفار، الأمر الذي دفعه إلى إبرام معاهدات سلام مع الفرس ليتفرغ للخطر القاطن خلف نهر الدانوب.

موقف الدولة البيزنطية من الآفار والسلاف في عهد الإمبراطور هرقل

رغم حسن تفكير الإمبراطور موريس وتدبره لما يحيط بدولته من أخطار، فإنه لم يوفق في إدارة الإمبراطورية بالشكل الذي يسمح له بتحقيق أهدافه. ولو كان تدارك غضب الشعب والجيش لربما قُدِّر له القضاء على هذه القبائل قبل أن يعلم بها أحد. خاصة بعد أن أصبح فوقاس إمبراطورًا مما زاد حال اضطراب الإمبراطورية داخليًا وخارجيًا فأُهملت الجبهة الشمالية للإمبراطورية. وبحلول عصر الإمبراطور هرقل ٦١٠- ٦٤١م سقطت معظم مدن شبه جزيرة البلقان في أيدي السلاف والآفار وأصبح لهم السيادة عليها. حيث انشغل هرقل في حروبه مع الفرس التي ما إن بدأ في التخلص منهم حتى ظهر له خطر العرب المسلمين فلم تسنح له الفرصة أن يتفرغ لمواجهة الخطر على الحدود الشمالية وهذه الظروف السيئة جعلت الآفار يطمعون في العاصمة البيزنطية حتى تصوروا أنهم يستطيعون أن يأخذوها طوعًا. فتوجهوا إلى الإمبراطور هرقل وطلبوا منه تسليم العاصمة فأدرك هرقل حجم الخطر الذي وصلت إليه الإمبراطورية، وبرفضه لطلب الآفار هاجموا العاصمة وأسروا وسبوا ونهبوا كل ما طالته أيديهم[٢] وانتهى الأمر بعقد صلح مقابل جزية مالية حاول نقضها الآفار عندما نما إلى علمهم أن الإمبراطور خرج لمحاربة الفرس، ولكن سرعان ما عاد هرقل ليشترِ أمان العاصمة فرفع قيمة الجزية للآفار[٣].

---

[1] - Theophylact Simocatta, Op.Cit., VII 15. , P 299; Lebeau, Histoire, tom 10, P.385; Lemeral, des Miracles De Saint Demetrius, V.I, p.144-145.

[٢] - نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٥٦؛

Nikephoros, Patriarc of Constantinople, Short History, Trans. Cyril Mango, Washington, DC. 1990, PP.51

[٣] - نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص٥٦-٥٦.

في هذه الظروف أرسل الفرس إلى الآفار للتحالف سويًا ضد الإمبراطورية البيزنطية، الذين لم يترددوا في الموافقة مما وضع الإمبراطور هرقل في مأزق شديد الخطورة وباءت كل محاولات هرقل لإقناعهم بالتراجع عن هذا التحالف بالفشل، فتحالف الآفار والسلاف مع الفرس ضد الإمبراطورية. وفي هذه المرة كان للسلاف شأنٌ آخر حيث إنهم كانوا يمتلكون أسطولًا بحريًا استعان به الآفار لحصار القسطنطينية بحرًا، ولم يجد هرقل بُدًا من المواجهة فهاجم الآفار والسلافيين قبل قدوم الفرس واستطاع فك حصار القسطنطينة وأغرق الأسطول السلافي وقتل الكثير من البحارة السلافيين، ومن استطاع النجاة منهم وأبحر إلى الشاطئ قتلهم الخاقان حتى يُجبر البحارة الآخرين والجيش السلافي على الاستمرار في الحرب إلى أن انهزموا هزيمة جعلت الخاقان الآفارى يلطم على وجهه، حيث عرض عليه القائد البيزنطي أثناء المعركة التفاوض مقابل المال، وكاد أن يوافق لولا دعم الفرس له فأغروه فأصر على القتال. إلى أن انهزم وأُجبر على العودة إلى إقليم بابونيا يجر خيبات الهزيمة[١]. وبهذا تفرغ الجيش البيزنطي لمحاربة الفرس وحقق انتصارات عظيمة عام ٦٢٦م. فعلى الرغم من تخوف الإمبراطور هرقل من هذا التحالف،فإنه استطاع بانتصاراته على الجميع تغيير خريطة المنطقة حيث استعاد هيبة الإمبراطورية وحد من خطر الآفار في منطقة البلقان وتهديد العاصمة مجددًا. واسترد من الفرس جميع المدن التابعة للإمبراطورية فكانت معركة فاصلة في تاريخ الإمبراطورية، وانقلبت القبائل التابعة للآفار عليهم، وخرج السلاف من تحت سيطرتها، وتوحدت تحت زعامة قائد واحد. فانهارت نفوذ الآفار وضاعت هيبتهم ولم يشُكلوا خطرًا على الإمبراطورية، إلى أن قضى عليهم الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤م) نهائيًا.

وعلى الصعيد الآخر؛ مع نهاية القرن السابع الميلادي كان للسلاف وجود قوي في شبه جزيرة البلقان وأصبحت السيادة لهم على مدن دالماشيا، الليريا، مقدونيا، تراقيا، آخايا، سيكلاديز ومدينة سالونا[٢] فتحولت بلاد اليونان إلى بلاد السلاف. وكما ذكرنا سابقًا أن السلاف قد نهجوا سياسة جديدة مع المدن التي تسقط في أيديهم وهي الحفاظ على سكان المدن الأصليين لذلك سنجد فيما بعد الامتزاج بين الشعبين السلافي والبيزنطي.

[1] - Nikephoros Short History, PP.53-58

[٢] - اسمت غنيم، الآفار، ص ٣٥-٣٦؛ وسام فرج، السلاف، ص ١٤٦-١٤٧.

الخاتمـــة

هكذا فضل الأباطرة البيزنطيون التحالف مع الآفار ضد القبائل السلافية، على أن يتحدوا مع السلاف ضد الآفار رغم قوة الآفار المعروفة والجزية التي كانوا يحصلون عليها عنوة من الدولة وسعيهم الدائم لزيادة قيمتها ومهاجمتهم للأراضي البيزنطية دائمًا. وهذا يجعلنا نتساءل هل كان السلاف أصحاب قوة ومهارة ودهاء مما جعل أباطرة الدولة البيزنطية يخشون توحشهم وأن يصبحوا دولة تبتلع الإمبراطورية البيزنطية ذات يوم؟ وإذا كان الأمر هكذا، لماذا تجاهل المؤرخون ذكرهم بالقدر الكافي في كتاباتهم وذكر الأحداث الخاصة بهم؟ هل كان السلافيون بالذكاء الذي جعلهم يخضعون لقبائل الآفار في بداياتهم حتى يصلوا إلى مبتغاهم؟ ربما الأمر كذلك؛ فإننا نجد فيما بعد أن الآفار اختفوا من ساحة الأحداث لتظهر قوة قبائل السلاف والبلغار الذين لعبوا مع السلاف دورًا آخر في العلاقات السلافية البيزنطية. ويرجح أن الأباطرة وجدوا في قبائل السلاف ما لم يجدوه في الآفار. فالسلاف شعب يبحث عن الاستقرار، والآفار شعب رحال. فربما كانت فلسفة الأباطرة البيزنطيين أن تسرق مالًا وترحل أفضل من أن تسرق أرضًا وتستقر بها.

في النهاية نجد أن الآفار رقصوا على الحبال من أجل تحقيق مطامعهم، وكانت الدولة البيزنطية وقبائل السلاف مثل عرائس الماريونيت في أيديهم، حتى أن القديس ديمتري أطلق على هذه الفترة "عصر الآفار السلافي"؛ فعندما كانوا يحتاجون إلى تحقيق مكاسب أكثر واغتنام الكثير من الثروات البيزنطية كانوا يدفعون قبائل السلاف لتعيث في الأراضي البيزنطية وتحتلها. وكثيرًا ما استغلوا حالة عدم الاستقرار بالإمبراطورية في مرحلة الانتقال من إمبراطور لآخر ليضغطوا على الإمبراطور الجديد ناكثين عهود السلام بينهم.

وإذا استفحل خطر السلاف المهدد لقوة الآفار في المقام الأول ويريدون كبح جماحهم، أظهروا ولاءهم الوهمي للإمبراطورية البيزنطية للتحالف سويًا في ردع الخطر السلافي وزحفهم على البلقان. وربما كان خضوع السلاف للآفار بهذا الشكل يعود إلى طبيعتهم السلمية وافتقادهم لزعامة حقيقية تتفهم فنون القيادة وفنون الحرب. ولكنهم استفادوا كثيرًا من الحروب التي خاضوها مع الآفار حتى أن القديس ديمتري أشار إلى أن القوارب التي استخدمها السلاف لحصار مدينة سالونيكا رغم بدائياتها أزعجت بحر أيجه قبل أن يدخله العرب[١] بزمن طويل وحققت بها تقدمًا يحسب لها، ويلفت الانتباه ورغم انتصار البيزنطيين عليهم فإنهم عملوا على تطوير القوارب فيما بعد حتى أصبحت تُشكل أسطولًا بحريًا. وهذه الأمور جعلت الأباطرة تتنبه وتقدر خطر القبائل السلافية.

[١] - Lemeral, des Miracles De Saint Demetrius, V.I1, p.88

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

1- A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire 324-1453, Canada1952.
2- Adam of Bremen, History of the Archbishops of Hamburg-Bremen, trans. by Francis J. Tschan (New Yor: Columbia University Press, 2005), Book 2.
3- A.Evacalopoulos, Origins of the Greek Nation The Byzantine period 1204-146, Trans., Ian Moles, New Brunswich
4- Allen Leeper, German, Avars And Slavs, The Slavonic and East European Review, Vol. 12, No. 34, (Jul. 1933), P. 117-132.
5- Procopius, History of the Wars, En. Trans, H. B. Dewing, U. K, 1962.
6- Chronicon Paschale, 284-628 AD. Eng. Trans. M. and M Whitby, Translated texts for Historians, Vol. 7, Liverpool, 1989
7- Gregory of Bishop of Tours, History of Franks Columbia, 1916.
8- Lebeau, Histoire du Bas Empire Tom 10, Paris 1929.
9- Les Plus anciens Recueils des Miracles De Saint Demetrius, Et La Penetration des Slaves dans les Balkans, Commentaire, Paul Lemerle, I,II, paris, 1979. 1981.
10- Nicephoros Patriarch of Constantinople, Short History, ed and Eng. Trans. C. Mango, CFHB, (Washington, DC.1990).
11- Theophanes, The Chronicle of Theophanes confessor, ed. Eng. And trans. R. Scoott and C. Mango, Oxford, 1997.
12- Theophylact Simocatta, The History of Theophylact Simocatta, Trans. Michael And Mary Whitby, Oxford press, New York, 1986.
13- Barford (P.), the Early Slavs, U. S. A, 2001.

قائمة المصادر والمراجع العربية والمترجمة

١- اسمت غنيم، الآفار، كلية التربية، جامعة الإسكندرية ١٩٩١.
٢- بروكبيوس، التاريخ السري، ترجمة، صبري أبو الخير، ط١ ٢٠٠١ عين للدراسات والبحوث، القاهرة.
٣- السيد الباز العريني، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م.
٤- طارق منصور محمد، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، البيزنطيون والعالم الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٣م
٥- عماد أمين النجار، الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب المنصورة، ٢٠٠٣م.
٦- محمد مؤنس عوض، الدولة البيزنطية، دراسات في تاريخ الأسر الحاكمة، ط١، دار عين القاهرة ٢٠٠٧م.
٧- ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطوريين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥-٥٨٢م)، رسالة ماجستير بكلية الآداب –جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.
٨- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠.
٩- وسام عبد العزيز فرج:
١٠- دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ٣٢٤-١٠٢٥م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
١١- السلاف في شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سياداتها(١٠١٨-٥٩١م)، بحث منشور بالمجلة التاريخية المصرية مج٣١، ٣٠ ص١٤١-٢٠١، مصر ١٩٨٤م
١٢- وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس ٥٨٢-٦٠٢م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة عين شمس،١٩٨٨.
١٣- يوحنا الآسيوي، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، المجلس القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٠م.

The Slavs between the Opportunism of the Avars and the Byzantine Interests in the Sixth and Seventh Centuries

By

Alyaa Magdy Mohamed Mahmoud ElBebawy

Prof.Dr. Mohamed Abd Elnaeam Mohamed Abdo

(Middle Ages / History Department) Faculty of Arts

Cairo University

Abstract:

When the Huns collapsed and dispersed along with their affiliated tribes, several other tribes including the Serbs, the Bulgarians, the Croats, and the Avars among others made incursions into the Byzantine lands. The Avars played a significant role in that era. Back then, The Byzantines sometimes exploited the Avars to help them eliminate the Slavs and the Persians, and at other times they sought to eliminate the Avars themselves. In other certain occasions, Avars had to unite with the Slavs and use them as a tool to threaten the Byzantine Empire to achieve their own interests.

Keywords: Slavs, Slav tribes, Avars, Balkans, Byzantine Empire.